

مريم عبد العزيز الشهيدة في معركة بوحامادو بالسوامع ولاية المسيلة

د/عبد الحميد عمران

جامعة محمد بوضياف-المسيلة-

مقدمة :

تعد مريم عبد العزيز من شهيدات الجزائر اللواتي قدمن حياتهن من أجل تحرير الوطن.. تربت وعاشت بالجزائر العاصمة و انتقلت إلى الولاية الأولى المنطقة الرابعة لتستشهد عن عمر قارب العشرين سنة... في معركة غير متكافئة مع العدو الفرنسي جرت أحداثها في السابع من فيفري 1957م.. كيف عاشت هذه البطلة...؟ وبمن تأثرت و كيف ساقتها الأقدار وهي العاصمة.. الإباضية المذهب الجزائرية التأصيل.؟ أن تستشهد في منطقة في عمق الجزائر ببوحماو بلدية السوامع الحالية بولاية المسيلة؟.

التعريف بمريم عبد العزيز :

عبد العزيز مريم بنت عبد العزيز من مواليد 4 جويلية 1937، من آل عبد العزيز ببني يزجن بغرداية، نشأت مريم عبد العزيز بين أحضان عائلتها التي انتقلت للإقامة بالجزائر العاصمة، و نظرا للوضعية المادية التي كانت تعيشها أسرتها كحال السواد الأعظم من الأسر الجزائرية آنذاك، ونظرا لتلك الظروف العسيرة انقطعت مريم عن الدراسة لما بلغت الشهادة الابتدائية، والتحقّت بمدرسة: بيحي (Bigi) الخاصة بتعليم الضرب على الآلة الزافنة. وصارت تنتقل بين المؤسسات والإدارات الاستعمارية عليها تجدد عملا لإعالة أسرتها، إلا أنها كانت تُواجه بالرفض لكونها جزائرية، فالتحقّت بمدرسة الممرضات وهي عيادة الصليب الأحمر لصاحبها الأنسة "لونك" (Lonk) الأوربية، بحي سالونبي (Salombai) سابقا، المدينة حاليا، أين تحصّلت على شهادة ممرضة. ثم حولتها الأنسة "لونك" إلى عيادة فيردان (Ver daine) إيدير عيسات للأعصاب، أين باشرت عملها بجدّ ونشاط، ثم انتقلت بعد ذلك إلى المستشفى الجامعي الكبير، ثم إلى مستشفى القطّار الذي بقيت فيه ثلاث سنوات.

وأثناء فترة تربصها بعيادة فيردان طلبت من والدها أن يشتري لها آلة راقنة لكي تتدرب عليها في المنزل، وأصبحت تشغل أوقات فراغها في كتابة وثائق تدعي أمام عائلتها بأنها لزملائها في المستشفى. كانت مريم عبد العزيز تتأخر بين حين وآخر في الدخول على المنزل. وتبرر تأخرها بالبقاء في العمل أو زيارة إحدى صديقاتها، و مع كثرة تأخرها تسرب الشك إلى عائلتها، وكانت مرات تأخذ معها بعض الطعام مدعية تقديمه لبعض مرضى مستشفى القطار.

التحاقها بصفوف جيش التحرير الوطني:

عندما تغيّبت مريم عن المنزل يومين كاملين، انتاب عائلتها القلق والخوف رغم إطلاعها إيّاهم على غيابها عن المنزل لبضعة أيام، وفي اليوم الثالث من تغيّبها، أسرع والدها إلى مقرّ عملها واستفسر عنها مسؤول المستشفى، الذي ردّ عليه بأنها تغيّبت عن العمل خلال اليومين المذكورين. وقد اكتفى والدها بالاستفسار عنها في مقرّ عملها، لأنّه فهم من تصرّفاتها في المدّة الأخيرة أنّ شيئاً ما قد حدث برضاها، وبالفعل لم تمض سوى أيام قلائل من تغيّبها عن المنزل، حتّى قدم شخص إلى عائلتها وأبلغهم التحيّة منها وأخبرهم أنّ مريم بخير، وبذلك تأكّد لعائلتها بأنها قد حققت حلمها الغالي المتمثّل في الالتحاق بثورة التحرير.

لقد كان شغف مريم عبد العزيز كبيرا باللباس العسكري وكانت تنتهز عودة أخيها الأكبر المجند ضمن صفوف الطيران الفرنسي لترتدي لباسه العسكري.

كانت مريم تقوم ببعض التصرفات الغريبة في أسرتها، ومنها توزيع نسخا من صورتها في أواخر سنة 1955م و شرائها لكنزة صوفية سميكة قامت بصباغتها باللون الأحمر..

عملها الثوري قبل التحاقها بصفوف جيش التحرير الوطني:

ذكر والدها في شهادات حيّة عن نضال مريم ومساهماتها قبل التحاقها بالعمل الثوري المسلّح، أنّها طلبت من والدها أثناء فترة ترصّصها بعيادة "فيردان" أن يشتري لها آلة راقنة، كي تواصل تدريبها عليها في المنزل، فأصبحت تشغل كلّ أوقات فراغها في كتابة الوثائق بالآلة الراقنة مدّعية لعائلتها أنّ تلك الوثائق للزملاء الذين يشتغلون معها في المستشفى. وكانت تتأخر من حين إلى آخر عن الدخول إلى المنزل في المساء، وتدّعي لعائلتها أنّها تخلّفت في الشغل أو زارت إحدى صديقاتها، ومع تكرار تغيّبها وتأخر دخولها إلى المنزل، بدأ الشك يتسرب إلى نفوس

أفراد عائلتها، وكانت تأخذ من المنزل المرّة تلو المرّة كمّية من المواد الغذائية، وتزعم أنها ستذهب بها إلى مرضى مستشفى القطّار من المساكن.

تعلقها باللباس العسكري:

لقد بلغ شغف مريم باللباس العسكري أنّها كانت تنتهز فرصة عطلة شقيقها الأكبر، الذي كان مجنّداً ضمن صفوف الطيران الفرنسي فترتدي ثيابه العسكرية، وتبقى بعض اللحظات تلفّ في غرفة الشقّة جيئة وذهاباً، وهي تتطلع على نفسها في المرآة. وذات يوم وضعت قبّعة أحيها فوق رأسها وخرجت إلى الشقّة، وصادف خروج جارّتها الأوربية السيدة "باردو" إلى شرفتها هي الأخرى، فلفتت مريم انتباهها وهي تبادلها التحية، تصنّعت السيدة "باردو" ابتسامة، وقالت لمريم: إن اللباس العسكري يُناسبك. فردت عليها مريم بسرعة وبدون تحديد: بأنّها ستلبسه عن قريب إن شاء الله.

وبعد اندلاع ثورة التحرير 1954 وطّدت مريم اتصالاتها مع إخوانها المجاهدين، إذ ممّا لفت انتباه عائلة مريم إلى تصرّفاتها الغربية، هو أنّها قامت في أواخر عام 1955، بتوزيع نسخ من صورتها على كلّ أفراد عائلتها، ثمّ جمعت ثيابها في حقيبة مدّعية أنّها ستبقى مدّة في المستشفى للمناوبة، ولكنّ الذي أدهش والديها هو شرائها لكترة صوفية "بيلافير"، وصيغ معطفها الأحمر بلون مُغاير.

إنّ الشهيدة مريم قالت لأبيها في مستشفى سطيف قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة:

إنّ جروحي يا أبي لم تؤثر عليّ كثيراً، ولكنّ الشيء الذي آلمني وصرت أشعر من جرّائه أنّ جسدي يتقطع إرباً إرباً، هي الضربات العنيفة التي أنزلها جنود العدوّ على رأسي بأخصّ البندقيات.

كما قالت لأخيها المجنّد في صفوف الطيران الفرنسي:

أعتبر نفسي أشرف منك، أنا جنديّة مقاتلة في صفوف جيش التحرير الوطني في سبيل ديني ووطني، بينما أنت ترتدي لباس العدوّ وتقاتل في سبيل الطاغوت، رغم أنّك تعرف أنّ الاستعماريين لن ينزلوك ولو في منزلة الوضعاء منهم لأنّك عربي، والمثل يقول: "العربي عربي ولو كان كولونيل بن داود".

وصولها إلى الولاية الأولى:

طلب الشهيد وعوac المدني البحث عن ممرضات وأطباء في بداية صيف 1956م للعمل في المنطقة لصالح جيش التحرير الوطني، وتم إرسال الممرضتين مريم عبد العزيز وزميلتها فتيحة أرّتي بواسطة القطّار من العاصمة إلى

مدينة برج بوعرييج ثم انتقلها إلى مدينة المسيلة بواسطة الحافلة، والتقتا بالمسؤول العسكري وعوابع المدني و تم نقلهما إلى سلمان ليم تجنيدهما في صفوف جيش التحرير الوطني.

شهادات رفقاء الشهيدة في السلاح:

تقول المجاهدة زهية مباركة تتحدث عن الظروف التي عرفت فيها مريم عبد العزيز، قبل أن تلتحق بالعمل المسلح، وبعد التحاقها تقول: "لقد تعرّف على الأخت مريم عبد العزيز في فترة تربصي بمستشفى القطار، وكانت مريم تعمل فيه ممرضة آنذاك، وفي نوفمبر 1956 التحقت بصفوف جيش التحرير، فأرسلتني الثورة مباشرة إلى ناحية المنطقة الأولى، وهناك فوجئت بوجود الأخت مريم عبد العزيز التي سعدت أيما سعادة بلقائها، إذ لم يخطر ببالي إطلاقاً أن أجدها أمامي حيث لم يسبق لي أن عرفت أنها تنتمي إلى صفوف المجاهدين في جبهة التحرير الوطني، وكما علمت منها فيما بعد، أنّها التحقت بصفوف جيش التحرير في جانفي 1957م".

وتقول زهور كاوش: "لقد التقيت بالأخت مريم عبد العزيز بالناحية الأولى، المنطقة الأولى من الولاية الأولى، (ببرهوم) وذلك على إثر اجتماع مؤتمر الصومام حيث كنّا في استقبال بعض قادة الثورة العائدين من منطقة الصومام، وقد افترقنا بعد ذلك التجمّع التاريخي، حيث ذهبت كل ممرضتين اثنتين إلى المنطقة الخاصة بهما، وكانت "مريم عبد العزيز" و"فتيحة إراتني" مكلفتين بمنطقة "مسيلة"، وكانتنا عبارة عن شُعلة من النشاط، فهما بجانب القيام بمهمّة العلاج، تشاركان إخوانهما المجاهدين في العمليات العسكرية، وتعالجان المدنيين، بحيث شاركتنا في عدّة اشتباكات ضدّ قوآت العدوّ في ناحية المسيلة".

حادثة استشهادها:

في منتصف فيفري 1957 كلّفت قيادة ناحية المسيلة الأختين "مريم عبد العزيز" و"فتيحة إراتني" بالقيام بمهمّة، فتوجّهتا في الحال رفقة الشهيدين الهاشمي عيواز..... وبوضياف، من جبل المعاضيد إلى الحُضنة في "هضبة الحدرّة" وبالتحديد "دوّار بوحامادو" بالولاية الأولى.

وصلت مريم عبد العزيز وزميلتها و بوضياف إلى الدوار في منتصف الليل ..ومع مطلع الفجر قامت القوات الفرنسية بعد تبليغها من قبل سائق السيارة الذي نقلتهم بمحاصرة المنزل لمدة فاقت الأربع ساعات..لقد استشهد الجندي المرافق بوضياف عبد الرحمان وبقي المسؤول سي الهاشمي عيواز والفدائيتين يقاومون و لم يكن مع الهاشمي سوى مسدس ..

وابلت مريم في هذه المعركة إذ كانت تحوز معها سلاحا أوتوماتيكيا حاولت فرنسا التفاوض مع المسؤول الهاشمي، لكنه رفض الاستسلام ..مما دفع بالقوات الفرنسية إلى طلب المزيد من القوات كي تتمكن من مدهمة المنزل .

سقط في المعركة عدد كبير من جنود العدو، واستشهد الأخ الهاشمي والأخت "فتيحة إراتني"، وبوضياف وأصبحت الأخت مريم عبد العزيز بجروح خطيرة، وقد أسرها العدو ثم نقلها إلى مستشفى سطيف على متن طائرة هيلوكوبتر،

وتوفيت فيه متأثرة بجروحها قبل وصول والدها الذي تم إستدعاءه..ولم تنطق إلا بعبارة واحدة كتبتها لولدها:- "أقدمي بسرعة لا أحتمل فراقك."، وهي معتزة بإيمانها الراسخ في تخلص الوطن من براثن الاستعمار الفرنسي".وقد نقلت رفاتها إلى مقبرة سدي بنور للإباضية بأعالي باب الواد بالجزائر العاصمة، وتخليداً لذكراها سمي جناح المستشفى بني مسوس باسمها، وسمي نهج "فييي feuillet" بباب الواد، باسمها بالعاصمة.وكان من نتيجة هذه المعركة إستشهاد المسؤول الإخباري الهاشمي عيواز والذي تلقى رصاصات من العدو إلا أنه انسحب بجراحة إلى منطقة السد بإتجاه السبخة ليسقط شهيدا بعدما نرف من الدم..و كان آخر ما قاله : "حملنا السلاح بهدف الشهادة لا الاستسلام." واستشهدت المرصتان ومرافق لهما واستشهد طفل في العاشرة من العمر عيواز رحال بن الشلاي. و تدمير الكثير من منازل الدوار..واكتشاف الكثير من الكازمات السرية وتمشيط المنطقة.

ختاما:

وتبقى مريم عبد العزيز واحدة من حرائر الجزائر التي آمنت بثورتها وإنخرطت فيها كمثل لوحدة لا تضام.. فهي الإباضية التي ترعرت بالعاصمة والتي تثقت بالثقافة الفرنسية رغم مستواها التعليمي البسيط..والتي كانت مثالا لوحدة ممن آثرن أن يقدمن أنفسهن فداء لهذا الوطن.